سراديب النجف تحولت الى ما يشبه الاساطير

سلطة صدام هدمت الكثير منها من دون ان تكشف اسرارها!

النجف/ خليل ابراهيم المشايخي

سراديب عمقها ٢٥ متراً، تقيك حر صيفنا اللاهب وتمنحك الدفء شتاءاً أثارت فضول عالم الاثار (توماس لايل) فكتب عنها بحثاً خاصاً في حقب مختلفة من الزمن.. كانت حكايات السراديب النجفية تنسج على نار هادئة حتى تحولت الى ما يشبه الاساطير.. تثير في نفوس الناس الرغبة والشغف لمعرفتها ولسماع المزيد عنها وكانت تنتقل حكايتها الى مدن الفرات الاوسط والمدن الجنوبية.. لاسيما الحكايات التي تتناقل عن الثوار والمناضلين للحكام المستبدين الظالمين.. وكان من هذه الحكايات ما يقض مضاجع الحكام الذين توالوا في حقب مختلفة على حكم العراق... وبقيت أسرار النجف لاسيما السراديب عصية على غير النجفيين.. لقد كانت تستخدم كأماكن للاجتماعات السرية لشتى الاحزاب التي تكونت في بداية القرن العشرين ومنتصفه. وكذلك التجمعات الدينية المناهضة للحكام...

كانوا ينتقلون فيها بحرية بعيداً عن أنظار الحكومة وأعوانها حتى بات الاعتقاد عند الكثير من الناس انك تستطيع مثلاً ان تدخل اذا كنت قادماً من جهة الكوفة عند باب سور النجف الكبير قرب ساحة الميدان؛ فتخرج من أية جهة تشاء من جهة القبلة أو من جهة باب الطوسي أو من جهة المشراق أو من جهة العمارة او من جهة البحر..

فلا عجب حينما عمدت حكومة البعث منذ السنوات الاولى من مجيئها عام (١٩٦٨م) الى هدم أجزاء من المحلات القديمة في مدن الفرات الأوسط لاسيما في مدينة الحلة... وأرى ان الغرض من ذلك هو تمزيق وحدة الأهالي الشعبية، وفك تماسكهم القوي فيما بينهم، والقضاء على معالم ارتباطهم بالمكان حتى تسهل السيطرة عليهم.. وربما في النجف كان لمعرفة سر السراديب ايضا..

وكان اهل النجف قبل فتح شط الهندية الى الكوفة عام (١٢٠٨هـ) يسدون معظم احتياجاتهم للماء من الآبار فكانت الحاجة تقتضي حفر بئر في كل بيت أو حفر بئر كبيرة مشتركة بين البيوت المجاورة... وقد تصل أعماق المياه الجوفية الى حوالي (٢٠٠م) كما ذكر الاستاذ حسين فاضل عبد الشبلي في رسالته التي تحدث فيها عن "اشكال الارض في بحر النجف".

إن وضع النجف الطوبوغرافي قل نظيره في العراق إذ ترتفع اعالي النجف (٦٥) متراً تقريباً عن سطح البحر وأرى ان تسميتها بالنجف جاءت من ذلك، فقد اتفقت معظم معاجم اللغة العربية على أن المدلول اللغوي لهذه المفردة هو (المكان الذي لا يعلوه الماء كالمسناة تمنع ماء السيل ان يعلو منازل الكوفة ومقابرها)..

الرحالة الاجانب والسراديب

لقد اثارت السراديب وطريقة بنائها وتصميمها فضول الرحالة الاجانب، وعلماء الآثار الذين قدموا الى العراق، وزاروا مدينة النجف.. ومن هؤلاء المستر (توماس لايل) عالم الآثار فقد تحدث عن مدينة النجف بعد زيارته لها وخص السراديب بحديث طريف نقتطف من قوله: (ان الميزة الفريدة في النجف وجود طبقة واحدة منها في كل بيت على الأقل وقد توجد في بيوتها الكبيرة ثلاث أو أربع او خمس طبقات من هذه السراديب..).

وهذه السراديب كما يذكر الرحالة باردة جداً فعلى المرء النازل الى تحت الطبقتين او الثلاث منها ان يلبس معطفاً لانخفاض درجة الحرارة بينما تكون درجة حرارة الخارج في حدود الـ (١٢٥) بالمقياس الفهرنهايت.

ويمضي في القول : (تتصل كثير من الدور بعضها ببعض عن طريق هذه السراديب فتكون وسيلة للجرائم التي تقف مخيلة الرجل المتمدن مشدوهة مرتجفة تجاهها..).

معمار نجفي خاص

ثم التقينا بأحد ابناء النجف الاصلاء وهو الحاج حسن الحاج عزيز المعله من عائلة نجفية أصيلة احتلت موقعا متميزاً في النجف، وقد اشتهر دارهم القديم القريب من الصحن الحيدري الشريف بسراديبه الثلاثة، وكانت يضرب بها المثل لسعتها وروعة بنائها وجمالية زخرفتها.. قال (كانت دارنا واسعة الارجاء وقد اعتنى اجدادنا بالسراديب وبنائها بشكل متميز قل مثيله فكان طرازها المعماري من المدخل بخاصة مما يذهل الناظر اليها فكان المعمار النجفي آنذاك يمتلك موهبة فذة قل مثيلها في المدن الاخرى كانت تذكرني وانا صغير بسنمار وعبقريته في البناء ومازالت منذ صغري مرسومة في مخيلتي لا تبرحها مطلقا.. وكان والدي قد حذا حذو جدي (يرحمهما الله) في الاعتناء بها وديمومتها كل سنة قبل الصيف.. كانت تقينا حرارة الصيف العراقي اللهاب.. لذلك كنا لا نحس بحرارة تموز وآب اللهاب الا اذا خرجنا من السرداب).. ثم سألناه ان كانت هذه السراديب متصلة بسراديب الجيران، فأجابنا: لا. ليس كل السراديب متصلة بسراديب الجيران، ولكن بعضها قد يتصل عن طريق الآبار.. كان الجيران اهلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. فليس من فرق الا ما حرم الله عزوجل.. فالثقة والألفة والمحبة والايمان والصدق.. وكانت العفة تضرب اطنابها في نواحي النجف كافة وحدثنا الشيخ الفاضل احمد عباس كاشف الغطاء عن السراديب الموجودة في مدرسة (المهدية) التابعة حالياً لمؤسسة كاشف الغطاء.. قائلا: (هذه السراديب التي تراها الان في المدرسة المهدية قديمة جدا كان اجدادنا (قدس الله ارواحهم الطاهرة) يستخدمونها صيفاً لاقامة الدروس الدينية وا لمحاضرات التي تلقى على طلبة الحوزة العلمية، وكذلك تستخدم كمكان لراحتهم ولاتزال كما تعلمون في خدمة طلبة الحوزة العلمية القادمين من انحاء العالم الاسلامي كافة يسكنون فيها بلا مقابل مع تقديم بعض الخدمات لهم.. كما فيها مكتبة ضخمة يجد الطالب بغيته فيما يحتاجه من الكتب؛ ويرتاد المكتبة حتى طلبة الكليات والدراسات العليا..

وحين دخلنا السرداب وجدناه مستطيل الشكل يبلغ طوله ما يقرب العشرين متراً وعرضه ما يقرب الخمسة أمتار..).

اسرار خفية

والتقينا الاستاذ عقيل المظفر احد المسؤولين عن خزانة المخطوطات في مكتبة الحكيم العامة فحدثنا قائلا: (كانت السراديب النجفية سراً من أسرار النجف الخفية تثير فضول القادمين الى النجف. وكانت الحكومات التي تعاقبت على حكم العراق لاسيما النجف تجد صعوبة بالغة في السيطرة على مدينتنا وكانت تعزو اسباب ذلك الى وجود السراديب لذلك كانت كلمة (سراديب) تثير الخوف وعدم الاطمئنان الى اهالي النجف، لانهم كانوا يظنون انه لا احد يستطيع حل اللغز المحير لها، فاذا ما دخل الانسان في بيت يستطيع ان يخرج من بيت اخر يقع على شارع آخر لذلك يصعب تعقبه أو مطاردته).

ثم توجهنا بالسؤال الى الاستاذ المحقق والباحث علي جهاد حساني مدير مكتبة امير المؤمنين عن انواع السراديب فأجابنا: ان خير من تحدث عن انواع السراديب النجفية هو الحاج عبد الحسن شلاش في كتابه (آبار النجف ومجاريها) المطبوع عام ١٩٤٧م.. وهذه الأنواع هي:

انواع السراديب :.

١. السراديب الارضية الموجودة في اغلب الدور معدل عمقها ستة امتار تقريباً.
٢. سراديب السن (الهصهاص) ومعدل عمقها عشرة امتار.
٣. سراديب سن القرض ومعدل عمقها خمسة عشر مترا.
٤. سراديب رأس الطار ومعدل عمقها خمسة وعشرين متراً وهذا النوع قليل جداً و بارد جداً وعقب الباحث والمحقق حسين جهاد على قول الشيخ احمد كاشف الغطاء بقوله: (لابد من حساب للسراديب في اغلب ابنية المدارس، ينزل اليها بسلالم وتسمى (منتصف السن).. أما السراديب الاعمق منه يسمى (سرداب السن) وتحفر حفرة صغيرة وسط المدرسة على شكل متوازي الاضلاع بقطر مترين وعمق عشرين متراً تقريباً وفائدتها حتى ينفذ منها النور ويسحب الماء البارد الى الأعلى ان كانت تصل الى البئر.. وفي الأعلى منافذ هوائية متصلة بالسراديب الفوقانية وهي التي تسمى بـ (البخاريات)..

اصول تاريخية

وسألناه عن هندسة بناء السراديب هل هي هندسة نجفية الأصل؟

فأجابنا قائلاً: (قد قيل إنها انتقلت من مدينة (شوشتر) الإيرانية لان طبيعتها تحاكي طبيعة النجف، وحفر الآبار فيها عرف قديماً جداً.. وهذا احتمال لا نستبعده..).

تصاميم السراديب:

وحدثنا الاستاذ (محمود عدوه) عن تصاميم السراديب بقوله: (للسراديب) تصاميم خاصة عرفها النجفيون ثم انتشرت في باقي مدن العراق منها تصميم (القبة دار) التي لا يستخدم في بنائها الا الحجر (الطابوق) والجص من دون استعمال شيء آخر وكانت ترصف الحجارة بهندسة عالية وزخرفة جميلة.. وهذا هو (ذات السطح المستوي) الذي تستخدم فيه الحجارة والحديد او الخشب أو أية مواد أخرى لتقوية سقوف السطح او (السقف) وهذه التصاميم الأولى ترتكز على عمود واحد من البناء يقدر سمكه بمتر مربع.

والحديث عن السراديب ذو شجون وسبتقى من أسرار النجف الخفية..

اطفال بين التسول والاعمال المهينة

احلام ضائعة في شوارع المدن

بابل/ مكتب المدى- محمد هادي

اعترفت منظمة العمل الدولية في بيان لها بمناسبة اليوم العالمي ضد عمالة الاطفال ان اكثر من مليون طفل يعملون في المناجم تحت الارض في ظل ظروف صعبة وقاسية يضعون المتفجرات ويزحفون في الأنفاق معرضين انفسهم الى خطر الموت جراء الانهيارات والانفجارات ودعت المنظمة الى ضرورة الحد من هذه الاعمال.

حمدت الله لأن العراق خال من المناجم، والا لكان اطفالنا اولى الضحايا لهذه الاعمال القاسية ولو انهم اصلاً يعملون في ظروف مؤلمة وبأعمال مهينة ولأجل تسليط الضوء على هذا الموضوع استطلعت (المدى) آراء أطراف الموضوع وخرجت بهذه الحصيلة.

عمل الاطفال يقلل براءتهم

اول من التقيناه الدكتور اثير مقداد رضا الذي اوضح ان عمل الاطفال في سن مبكرة يشكل خطورة كبيرة على نفسية الطفل ومستقبله ويقتل البراءة لديه. وان امتهان الاطفال في اعمال مذلة يؤثرعليهم ويعرضهم الى ضغوط نفسية كبيرة، حتى عندما يكبرون.

مصاحبة الاطفال آباءهم في العمل

وعن ظاهرة اصطحاب الاب ابناءه الى محل عمله تحدث السيد محمد كاظم صالح "ان ذلك يبعدهم عن مشاكل الشارع اضافة الى انهم يتعلمون مهنة حرة تنفعهم في هذه الظروف الصعبة" في حين انغمس الطفل حسن في ممارسة عمل لايحبه وقد ترك المدرسة من اجل ان يتعلم مهنة ابيه.

خلال تجوالنا في السوق الكبير وجدنا العشرات من الأطفال الذين امتهنوا (صبغ الاحذية)، وهو من الاعمال التي لجأ اليها الكثير، وحين سألنا الطفل سليم عن السبب في اشتغاله.. اجابنا: العمل ليس عيباً وانا بهذه المهنة منذ اكثر من سنة وأحصل على خمسة الآف دينار يومياً تقريباً، وهي كافية، وأستطيع ان أوفر لنفسي ما أريد.

ابناء الضحايا

السيد طه عليوي (حداد) قال: ان اغلب الاطفال الذين يعملون هم من ابناء الضحايا والفقراء والشهداء، وهم في الغالب بلا معيل، ويضطرون للعمل في بيع السكائر والاكياس البلاستيكية وعتالين. وللاسف فأن هذه الاعمال تجعلهم يتركون المدرسة وينحرفون في شرب السكائر والخمر وحبوب الكبسلة وصرف ما يحصلون عليه في محال البلي ستيشن والـ CD.ودعا الى رقابة هؤلاء ومنعهم من الضياع حفاظاً على مستقبلهم واعادتهم الى مدارسهم حتى لا ينحرفوا ويصبحوا مجرمين.

من يوقف الكارثة؟

هدى محمد (باحثة اجتماعية) بينت ان مئات الاطفال يبيعون الغاز السائل والنفط الابيض مستخدمين العربات التي تجرها الحمير، اضافة الى ان البعض منهم يبيع (الخردة) ويشتري المواد التي خلفتها الحروب وهي بالتأكيد معرضة الى مواد كيمياوية قاتلة ولا احد يضع حداً لهذه الكارثة.. والمصيبة ان اغلب هؤلاء من دون آباء أو أهل يتابعون ما يجري لابنائهم وكأن الامر لا يعنيهم فالطمع والجشع اعماهم.

مخاطر وسموم

في منطقة المعامل المنتشرة في كل مكان، وجدنا اطفالاً بعمر الورد بنين وبنات يحملون الطابوق على الحمير والعربات فيما يقوم العديد من الاطفال (بتوجير) كور الطابوق وهم يدفعون النفط الاسود اليها وسط صراخ وشتائم اصحاب العمل الذين لا تعرف الرحمة طريقاً لقلوبهم وحين سألنا احدى الفتيات الصغيرات عن اجرها اليومي أجابتنا بأنه اسبوعياً ثمانية الاف دينار.

العجب العجب!

الاطفال هنا يعملون في كل شيء وتجدهم في كل محل تقريباً وقد تدهنت وجوههم بالدهون والنفط والسخام فيما ارتمى البعض الآخر تحت السيارات في ثياب قذرة ممسكين بأياديهم الصغيرة المفلات واللوالب وحين يكملون عملهم يبتسمون ببراءة منتظرين (البخشيش)..

الاطفال والدستور

ان دول العالم المتطورة ومنظمات حقوق الانسان وضعت ضوابط وقوانين حرمت فيها عمل الاطفال فلماذا لا يطبق ذلك لدينا؟، هذا الكلام للسيد علي الزبيدي/ مشرف تربوي الذي اضاف ان الاطفال يتسربون من المدارس وينضوون في هذه الأعمال بتشجيع من الأهل تحت اعذار ان المدارس والشهادات لا تنفع وهناك الالاف من الخريجين من دون عمل لذلك أرى من الضروري وجوب سن قانون يحرم ترك الاطفال المدرسة حتى اكمال الدراسة المتوسطة في الاقل لأن هنالك جيلاً كاملاً ممن تركوا المدارس وامتهنوا اعمالاً خنقت طفولتهم بحجة تأمين الحياة الكريمة لذويهم واتمنى ان تثبت حقوق الطفولة في الدستور الذي سيتم الاستفتاء عليه وكذلك يجب ان تلعب منظمات المجتمع المدني دورها في تثبيت حقوق الطفل وحمايته من الاستغلال بكل اشكاله.

زبالون

امام باب البلدية تجمهر العشرات من الاطفال يريدون العمل في تنظيف الشوارع من النفايات وبأجور يومية قليلة أستسهلها المختار ومقاولو التنظيف اذ يتوزع مئات الاطفال في شوارع المدينة وأحيائها وهم يرتدون ملابس تشبه ملابس السجناء فمتى يعيش هؤلاء حياتهم وينعمون باستقرار وكرامة ومتى تتبنى الدولة حلولاً لمشكلة هؤلاء الاطفال الذين يرزحون تحت هذا الظلم وهذه العبودية وتؤمن لهم ولاسرهم حياة كريمة من دون اذلال ومهانة؟

في تقاطعات الطرق والاشارات الضوئية والكراجات اطفال يستجدون وآخرون يبيعون الموز يركضون خلف السيارات المنطلقة باحثين عن زبائنهم هذا حالهم كل يوم وغيرهم ينطلقون من الساعة السادسة صباحا ولا يعودون الا قبل الاذان أما آن الاوان لتنتهي معاناة اطفالنا؟

منع العمل

حملنا اوراقنا وقصدنا دائرة العمل والضمان الاجتماعي والتقينا مديرها السيد اكرم خصباك ووجدنا الرجل مهموما اكثر منا فالقضية قضيته وهو الذي حاول جاهداً ان يقدم أي شيء وقد أطلعنا على نص الكتاب الذي تم تعديله في وقت الحاكم بريمر حول عمل الاحداث وتمنى ان تكون الايام القادمة شاهدة على دستور عراقي يعطي للاطفال والاحداث حقهم واضاف ان ممارسة الاحداث الأعمال امر شائع في العراق ويسيء الى صحة وسلامة واخلاق الحدث علماً بان العراق من الدول التي صادقت على اتفاقية العمل الدولية رقم (١٨٢).

الاعمال السيئة للاطفال

فيما يلي الاعمال السيئة التي تعتبر منافية لقانون عمل الاحداث وهي:

أ. كل اشكال العبودية كبيع الاطفال والمتاجرة بهم او عبودية الاطفال او تجنيد الاطفال في النزاعات المسلحة.

ب. استغلال الطفل او شراؤه او عرضه للبيع لاغراض الدعارة والعروض الاباحية.

ج. الاعمال التي تؤدي الى ضرر في صحة وسلامة الاطفال.

وقال السيد علي عزيز/ محام

ان أي شخص يستفيد او يحاول ان يساعد على الاستفادة من الاعمال التي تسيء الى الاطفال او تؤدي الى انحرافهم يكون مذنباً وسوف يحاكم ويدان بموجب قانون العقوبات لذلك يجب مراعاة مايلي:

أ. منع انضمام الاطفال الى الاعمال المنحرفة.

ب. توفير المساعدة المباشرة والضرورية.

ج. ضمان الالتحاق بالتعليم الاساسي.

د. التحديد والوصول الى الاطفال الذين هم في مخاطر خاصة ومنهم الذين يتعرضون لاعتداءات جنسية.

هـ. الاهتمام بحالات البنات اللواتي يسبب لهن جنسهن مشاكل كبيرة.

ونحن نرى ان على الجهات المسؤولة ايقاف تشغيل الاطفال وايجاد الوسائل البديلة لهم واحتواؤهم لكي لا يضيعوا في متاهات المرض والجريمة والاستغلال البشع لطفولتهم.

حدث وحديث

فوبيا الأزمات

محمد شريف

ليس غريباً ان تتزامن أزمة (النفط الابيض) مع الحملة التي شنتها الحكومة ضد تجار هذه المادة، الذين تمادوا كثيراً، فأمتد نشاطهم ليشمل التهريب والاحتكار، ولكن الغريب أن يشتعل أوار الأزمة ليصل إلى حد التسابق بين الناس، على خزن كميات كبيرة من هذه المادة، وبأسعار وصلت إلى ٧٥ ألف دينار للبرميل الواحد.. والاكثر غرابة في الأمر، اننا نعيش في أيام مستعرة جراء حرارة الشمس.. ولا نعرف هل ثمة اختراع لجهاز تبريد يستخدم فيه النفط الابيض، قد أغرق السوق (ونحن نائمون)؟! أم ان الفوانيس واللالات باتت تستهلك كميات كبيرة من النفط تضامناً مع ارتفاع (اسعار الامبيرية) لدى أصحاب المولدات.. وعلى حد علمي ان تكنولوجيا الفوانيس واللالات تضيف حرارة لا تطاق على حرارة جدران المنازل.. ولكن لماذا يتسابق الناس على شراء النفط الابيض مادام استخدامه هذه الأيام يكاد ينعدم، ولاتزال خمسة اشهر تفصل بيننا وبين البرد، فهل حقيقة ما يقال باننا شعب أزمات؟

احدهم قال لي.. وراء هذه الازمة ثلاث فئات، فئة المنتفعين منها وهؤلاء هم تجار السوق السوداء على مختلف احجامهم وبعض من موظفي وزارة النفط، وفئة سياسية تساهم وتسعى دوماً لوضع العصي في العجلة، وهذه الفئة معنية دوماً بتصعيد الأزمات لغاية في نفس يعقوب، تعينهم في ذلك اصابعهم المتواجدة في مؤسسات الدولة، وقدرتهم وخبرتهم الطويلة في افتعال الأزمات. والفئة الثالثة هي مجموعة كبيرة من الناس، الذين ينساقون وراء ضجيج الازمات من دون مراجعة للنفس، وهؤلاء لا يتساءلون عن دوافع الأزمة أو أسبابها لانهم مؤمنون ان الحياة عبارة عن ميدان سباق، ومهمة المتسابق هي الوصول اولاً إلى خط النهاية.. لذلك تراهم يتراكضون دوماً.. وان جئت للحق فان هؤلاء لديهم العذر، لأنهم نشأوا وتربوا في مجتمع اللاتكافؤ في الفرص، فتولدت في دواخلهم حالة مرضية جمعية اسمها (فوبيا الأزمات) أي انهم يخافون من وقوع الازمات وبالتالي فانهم يساهمون في حصولها، حتى قبل أوانها من دون درايتهم.. وعندما انتهى صاحبي من تحليله لواقع الأمور، حييته على قدرته ونظرته الصائبة وقلت تأكد انني واطفالي قد قضينا الشتاء الماضي برفقة البرد، وقد كان رفيقاً جميلاً ورقيقاً حتى مع اطفالي القاصرين.. والحمد لله اننا لم نصب بفوبيا الأزمات كما تقول، وبعد أيام علمت ان صاحبنا قد قام هو الآخر بشراء برميل من النفط بسعر عالٍ.. وعلى ما يبدو انه استسلم لضغوط المصابين بهذا النوع من الفوبيا، من افراد عائلته.. أو ربما قد اصابته العدوى!!